الفصل السابع

وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة في العصر المملوكي

المبحث الأول

وباء الطاعون ماهيته وأسبابه

أولاً: ماهية وباء الطاعون

أطلق المؤرخون القدماء كلمة الوباء على جميع أنواع الأمراض المعدية الفتاكة التي تصيب الإنسان أو الحيوان، وعلى الرغم من إطلاقهم كلمة وباء على الطاعون، إلا أن اغلبهم كان يدرك أن كلمة وباء اشمل من الطاعون، وأن الطاعون واحدٌ من هذه الأوبئة، وقد عرّفت المصادر التاريخية وباء الطاعون حسب ما شاع عنه آنذاك، واصفةً إياه بأنه مادة سمية ينتج عنها بثرٌ وورمٌ مؤلمٌ [1] وأكثر ما يصيب المناطق الرخوة من الجسم، ويظهر عليه احمرار أو اسوداد أو اخضرار، ويبدأ خفقان القلب بالازدياد في كثير من الأحيان فضلاً عن التقيؤ، كما أنها صنفته على ثلاثة أنواع كالطاعون الدملي والرئوي والدبلي، ويبد أن الأخير أكثرها انتشاراً في حقبة العصور الوسطى [2].

أما علماء الطب والباحثون المحدثون فعرّفوه بشكل مفصل، من خلال الاكتشافات والوسائل العلمية الحديثة، مؤكدين على انه من الأمراض الوبائية القديمة، وهي شديدة العدوى وسريعة الانتشار والفتك ويتسبب بنسبة وفيات كبيرة جداً إذا ما انتشر في بلدٍ ما، وهو في الأصل من الأمراض التي تصيب الحيوانات القارضة كالفئران، ومنها ينتقل إلى الإنسان عن طريقين، أما التلامس المباشر مع الحيوانات المصابة أو عن طريق البراغيث، فتصاب الغدد اللمفاوية الموجودة في الفخذ والإبط والأذن وتبدأ بالتضخم، وتنتقل الجراثيم إلى الدم مباشرةً ومن ابرز أعراضه، الألم الشديد المصحوب بحمى وقشعريرة مع تقيؤ وعطش شديد، فضلاً عن صداع وهذيان، وتظهر في اليوم الثالث من الإصابة دمامل سوداء تأخذ بالتضخم شيئاً فشيئاً وإذا ما تقيحت هذه الدمامل يكون هناك أملٌ في شفاء المصاب ونجاته من الموت. أما إذا بقيت صلبة كما هي فأنها تؤدي إلى وفاته على الأغلب في اليوم الخامس من الإصابة، كما تكون فرصة نجاة المصاب وشفائه كبيرة إذا بقي حياً

(1) مصطفى السيوطي الرحيباني، مطالب أولي النهى (المكتب الإسلامي، دمشق: 1961م): ج4/ص422.
(2) احمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله الباز، ط2(دار الكتب العلمية، بيروت: 2005م): ص ج16/ص181-182. ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج10/ص198-199.

إلى ما بعد اليوم العاشر، كما ينتقل الطاعون من منطقة إلى أخرى بشكل سريع، إذا لم تتخذ التدابير الوقائية اللازمة لمنع انتشاره،وهذا ما كان مستحيلاً في حقبة العصور الوسطى، لعدم وجود الطرق والوسائل الكفيلة بمنع انتقاله من إقليم إلى آخر [1].

ثانياً: الأسباب الرئيسة لتفشي وباء الطاعون

شهدت بعض أقاليم الدولة العربية الإسلامية في حقبة العصور الوسطى ظاهرة حدوث وباء الطاعون بكثرة[2]، وكانت مصر احد هذه الأقاليم ولاسيما في العصر المملوكي، إذ تعرضت للإصابة بوباء الطاعون أكثر من أربعٍ وأربعين مرة إما بشكل كامل أو في أجزاء مختلفة منها ومدينة القاهرة التي تمثل نطاق البحث لواحدٍ وعشرين مرة [3]، وعلى الرغم من تعدد حالات الحدوث المتباينة زمنياً،إلا أن الأسباب الرئيسة لحدوثها تبقى ذاتها مع تغيرات بسيطة وهي كالآتي:

1. الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر بما فيها عاصمتها القاهرة في العصر المملوكي، سواء لأسباب طبيعية كحدوث الجفاف والجدب والفيضانات والآفات الزراعية والأوبئة والأمراض التي تصيب الحيوانات من ناحية، أو لأسباب بشرية كالحروب والفتن الداخلية وكساد التجارة واحتكار المواد الغذائية، وعدم توفر الشروط الصحية فيها من ناحية أخرى[4]، ومهما كانت أسباب هذه الأزمات، فأنها تؤدي إلى حدوث القحط والمجاعات التي يخلفها عادة انتشار وباء الطاعون أو بالعكس، وقد يكون ملازماً لها في أحيان أخرى، ويندر حدوث

(1) مجموعة مؤلفين، الموسوعة الطبية الحديثة، ترجمة: احمد عمار وآخرون، ط2(مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970م):ج5/ص737-738؛ احمد عطية الله، القاموس الإسلامي، ط3(دار النهضة العربية ، مصر: 1968م):ج4/ص425؛ يوسف درويش غوانمة، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، بحث منشور في مجلة علوم فصلية (دمشق: 1983م): ع13-14 / ص234.

(2) أبو عثمان بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة: 1945م): ج4/ص136؛ أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخر(دار احياء الكتب، القاهرة: د.ت)،ص 234؛ النويري، نهاية الأرب: ج1/ص371.

(3) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (دار المعارف، القاهرة: 1978م)، ص129-138.

(4) عطية الله، القاموس الإسلامي: ج4/ص426؛ محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت: 1971م): ج5/ص 737.

ذلك كما هو الحال في طاعون سنة 864هـ/1459م، وقد عد ابن تغري بردي هذا الأمر من المصادفات النادرة قائلاً: ((من النوادر وقوع الوباء والغلاء معا في وقت واحد))[1]، ويرجع ذلك إلى النقص الحاد في المواد الغذائية، وان تَوَفَرَ قسماً منها فهي لا تكفي لسد الحاجة أو تكون غير صحية[2] ويضيف ابن خلدون أسباباً بشرية أخرى كالاضطرابات السياسية والفتن وكثرة القتلى((كثرة المجاعات... وكثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل))[3]، وهذا ما كان يحدث في العصر المملوكي بسبب الحروب والصراعات التي تدور بين طوائفهم، مما يخلق فوضى سياسية ينجم عنها أزمة اقتصادية، فتغلق المدينة أسواقها، وتبدو كأنها مدينة أشباح خالية من السكان، كما حدث في 693هـ/1293م و872هـ/1467م وسنوات الطاعون الأخرى [4].

2. رداءة المناخ والظروف البيئية: إن عدم استقرار المناخ ما بين الجاف مرة والرطب مرة أخرى، فضلاً عن عدم استقرار الحرارة والبرودة وتلوث الهواء ومياه الأنهار في الأوقات التي تسبق مواسم الفيضانات من أسباب حدوث الطاعون [5]، وهذا ما أكدته المصادر التاريخية أثناء الحديث عن نهر النيل ((يخضر لونه مع بداية الزيادة وتكون مياهه غير صالحة للشرب))[6] وإذ ما دققنا في الطواعين التي أصابت مصر بشكل عام، نجد أن لنقصان منسوب نهر النيل أو فيضانه دوراً كبيراً في حدوث المجاعات التي تؤدي إلى حدوث

(1) النجوم الزاهرة: ج16/ص141.
(2) عطية الله، القاموس الإسلامي: ج4/ص426؛ وجدي، دائرة معارف القرن العشرين: ج5/ص 737.
(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط5(دار القلم، بيروت: 1984)، ص 302.
(4) للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن أيبك، كنز الدرر: ج8/ص273؛ ابن إياس، بدائع الزهور: ج3/ص18.
(5) سنان بن ثابت بن قرة، الذخيرة في علم الطب (المطبعة الاميرية، القاهرة: 1928م)، ص 167؛ كما أكدت كتب البلدانيين المسلمين على العلاقة بين المناخ وظهور الأوبئة، فضلاً عن اهتمام السلطات الإسلامية وتركيزها الكبير على توفر الشروط الصحية في مناخ وبيئة الموقع الذي يتم اختياره . ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج1/ص9؛ القزويني، آثار البلاد، ص 152.
(6) عبر المصريون عن هذه الظاهرة بقولهم((توحم النيل)) وعزوا ذلك إلى أسباب كثيرة. للمزيد من التفاصيل ينظر: النويري، نهاية الأرب: ج1/264؛ المقريزي، الخطط: ج1/ص165-166؛ قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص14.

الطاعون [1]، لذا فقد كان اختيار مواقع المدن الإسلامية وازدهارها مرتبطاً بمناخها وبيئتها الجيدة.

3. التوسع العمراني وتزايد أعداد السكان: إن توسع المدن وكثرة العمران نتيجة لتزايد أعداد السكان فيها، يؤدي إلى تلوث بيئي بسبب كثرة الأبنية، وعدم وجود الفسح الخالية التي تسمح بتداور الهواء، مما يتسبب في انتشار الأوبئة التي تودي بحياة الكثير، ويكون هذا عادةً في المدن الكبيرة المكتظة بالسكان أكثر من غيرها[2]، وقد أكد ابن خلدون على أن التوسع العمراني أحد مسببات انتشار الأوبئة من خلال قوله: ((... وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران...ولهذا فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير)) [3].
4. عدم وجود الأساليب الوقائية المتطورة لمعالجة الأوبئة والأمراض في حقبة العصور الوسطى فضلاً عن عدم الاهتمام بالنظافة، وقيام السكان بإلقاء الأوساخ والقاذورات وجيف الحيوانات الميتة في الطرقات ومجاري الأنهار [4].
5. التماس المباشر مع الحيوانات القارضة التي تنتشر في المنازل كالفئران وغيرها، فهي تشكل احد أسباب الإصابة بالطاعون، لاسيما أنه من الأوبئة التي تصيب القوارض ومنها تنتقل إلى الإنسان[5].

المبحث الثاني

القاهرة ووباء الطاعون في العصر المملوكي

(1) ابن أيبك، كنز الدرر: ج9/ص258؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2/ص349؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص 41-42 2؛ الخطط: ج1/ ص167.
(2) غامس خضر حسن الدوري، الكوارث الطبيعية وآثارها في العراق حتى نهاية الدولة العباسية، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب (جامعة بغداد: 1996م)، ص234.
(3) مقدمة ابن خلدون، ص 238.
(4) عثمان علي محمد عطا، الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاقتصادي والاجتماعي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: د.ت.)، ص 74.
(5) محمود الحاج قاسم، الطب الوقائي النبوي، بحث منشور ضمن كتاب بحوث الندوة القطرية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب (دار الكتب، الموصل: 1989م): ج1/ص 163.

تعرضت مصر بشكل عام ومدينة القاهرة بشكل خاص إلى حدوث وباء الطاعون وانتشاره فيها لمرات كثيرة في العصر المملوكي، إلا أن حدة انتشاره وآثاره على السكان في عصر المماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م)، كانت اقل مما هي عليه في عصر المماليك الجراكسة (784-923هـ/1382-1517م)، ويرجع ذلك إلى أن دولة المماليك البحرية كانت في بداية حكمها دولة فتية قادرة على مواجهة الأزمات بفضل سلاطينها الأقوياء الذين عملوا جاهدين على جعل دولتهم قوة كبرى تتمتع بكل الصفات التي تؤهلها لزعامة المسلمين في العالم.أما في عصر المماليك الجراكسة فبدأت دولتهم تهرم شيئاً فشيئاً، وأخذت عوامل الضعف تنخر في جسدها على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذا فقد كانت آثارها واضحة من خلال تكرار وقوع أزمات الغلاء وانتشار والأوبئة كالطاعون بشكل متتالي،على الرغم من محاولاتها اليائسة للتغلب على تلك المشاكل.

وقبل تناول دراسة وباء الطاعون الذي ضرب مدينة القاهرة في العصر المملوكي،لابد من الإشارة إلى أن حدوثه كان متكرراً، وما هو إلا سلسلة طويلة من الطواعين التي حدثت في تلك الحقبة التاريخية، وكانت متتالية ومتقاربة في أحيان كثيرة، مما جعل مهمة الحديث عن كل واحدة منها بشكل منفصل أمراً في غاية الصعوبة [1]، وعلى الرغم من ذلك سنحاول جاهدين للإلمام بكل منها لتظهر الدراسة بشكل أكاديمي متكامل.

إن أول طاعون حدث في مصر في العصر المملوكي، وتفشى في القاهرة في سنة 720هـ/1320م، وكان شديداً نوعاً ما، إلا أن الكثير من المصادر التاريخية أغفلت ذكر تفاصيله، باستثناء السيوطي الذي أشار إلى تفشي الوباء بمصر كلها دون تحديد نوعه، كما أنه لم يشر إلى القاهرة بشكل صريح، كما أشار إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية نتيجة لهذا الوباء[2].

أما الطاعون الثاني فقد عم مصر، في شهر صفر سنة 749هـ/1348م [3]، واجتاح القاهرة، وامتد إلى أواخر محرم من السنة التالية، مخلفاً وفيات كثيرة ((فمات فيه أمم لا يحصيهم إلا الله))، وبلغت أعداد الوفيات في القاهرة ومصر في اليوم الواحد ما يقرب من

(1) قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 67.
(2) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب، القاهرة: 1968م): ج2/ص301.
(3) السيوطي، المصدر نفسه: ج2/ص303.

(11000) نسمة [1]، وممن توفي مطعوناً في هذا الوباء المقرئ محمد بن أبي بكر بن علي شمس الدين الشطي الصالحي والأمير أسندمر القليجي والأمير قطليجا البتلتمرى والي القاهرة ومحتسبها محمد بن على بن المهتار [2].

كما أشارت المصادر التاريخية إلى تكرار حدوث الطاعون في القاهرة 761هـ/1359م واستمر حتى سنة 762هـ/1360م دون ذكر أي تفصيلات أخرى، كما يأتي طاعون سنة 764هـ/1362م الذي فشا بالقاهرة في رمضان [3] نموذجاً واضحاً للوباء الذي اثر فيها بشكل كبير، وزاد من سوء أوضاعها، وأودى بحياة عدد كبير من سكانها ولاسيما اليهود الذين شكلوا نسبة كبيرة، فقدر عدد الضحايا في شهر رمضان نحو(1000) نسمة وفق مصادر ابن كثير[4]، وكان من بين وفيات في هذا الطاعون الأمير سيف الدين بلك الجمدار الناصري [5] ، والأمير بكتوت القرماني، والقاضي عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحمن القزوينى والشيخ سراج الدين عمر الصفدى متولي مشيخة الخانقات الصوفية [6].

كما وقع الطاعون في مصر في سنة 769هـ/1367م وانتشر في جميع أراضيها وصولاً إلى القاهرة، واستمر متفشياً فيها أربعة أشهر، عانى السكان خلالها كثيراً من شدة فتكه إذ بلغ عدد ضحاياه أكثر من (100) نسمة في اليوم الواحد [7].

كما ابتدأ انتشار وباء الطاعون مرة أخرى في مدينة القاهرة في سنة 783هـ/1381م واول من مات فيه من الأمراء المماليك أيدمر الشمسي، والأمير علي بن قشتمر، واخذ هذا الوباء بالتزايد في شهر صفر وانتهى في أواخر شهر ربيع الأول [8]، وأسفر عن ارتفاع كبير في الأسعار استمر حتى سنة 784هـ/1382 [9].

---

(1) أبو الفضل تقي الدين محمد بن فهد المكي، لحظ الألحاظ ذيل طبقات الحفاظ(دار الكتب العلمية، بيروت: د.ت.): ج1/ص79.
(2) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة: ج1/ص 460- 461؛ ج4/ص298؛ ج5/ص346.
(3) السيوطي، حسن المحاضرة : ج2/ص303.
(4) ابن كثير، البداية والنهاية: ج14/ص302.
(5) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخر(دار إحياء التراث، بيروت: 2000م): ج10/ص181.
(6) الدرر الكامنة: ج2/ص62؛ ج3/ص156؛ ج4/ص232.
(7) السيوطي، حسن المحاضرة: ج2/ص303.
(8) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج1/ص231؛ السيوطي، المصدر نفسه: ج2/ص306.
(9) السيوطي، المصدر نفسه: ج2/ص306.

وما أن دخلت سنة 790هـ/1388م حتى انتشر الطاعون في القاهرة ونواحيها، وانشغل الناس بمعالجة مرضاهم ودفن أمواتهم مع ازدياد خشيتهم من الإصابة به، واستمر هذا الوباء يفتك بالقاهرة حتى سنة 791هـ/1389م، مخلفاً خسائر بشرية كبيرة لم تحددها المصادر[1].

وفي رمضان سنة 809هـ/1406م فشا الطاعون في القاهرة، واستمر حتى نهاية السنة موديا بحياة الكثير من سكانها، وممن مات فيه من الأعيان شهاب الدين أحمد بن عبد الله العجمي الحنبلي[2]، وأكد السيوطي حدوث هذا الطاعون، إلا انه انفرد بالإشارة إلى انه وقع في سنة 810هـ/1407م [3].

وعلى ما يبدو أن سنة 809هـ/1406م هي التاريخ الصحيح والأرجح لوقوعه، لإجماع المؤرخين عليه من ناحية، وقدم هؤلاء المؤرخين فهم اقرب زمنياً للحدث من ناحية أخرى.

وفي أواخر شهر ذي الحجة من سنة 816هـ/1413م وقع الطاعون بمصر وتفشى بين السكان[4]، وأصبحت القاهرة إحدى المدن الموبوءة، وكان أثره كبيراً على الأطفال دون غيرهم، بسبب الارتفاع الملحوظ في درجات الحرارة التي تسببت في زيادة عدد الوفيات، فبلغت (120) نسمة في اليوم[5]، ومن الأسباب الأخرى التي زادت من حدته هبوب رياح شديدة من الجهة الجنوبية استمرارها لعدة أيام، فبلغ عدد الوفيات في القاهرة وحدها يومياً ما بين (20-30) نسمة من مختلف الفئات العمرية حسب ما ورد إلى الديوان من أسماء، وازدادت ردائة المناخ مع حلول فصل الربيع، فبدلاً من اعتداله كما هو معتاد أصبح حاراً يابساً ورياحه كلها جنوبية، مما أسهم في ازدياد انتشار الطاعون وارتفاع ضحاياه إلى ما يزيد على(100) نسمة، واخذ الطاعون بالتزايد في بداية شهر صفر،إلا انه بدأ بالتناقص في منتصفه،وذلك بسبب تحسن الطقس، ولاسيما بعد أن عمت الرطوبة فخففت من موجة الحر لمدة عشرين يوماً،إلا أنها لم تلبث أن ارتفعت مرة أخرى، فتزايد الطاعون ؛ فتجاوزت أعداد الوفيات(120)نسمة في اليوم، مما اثر سلباً على الحالة الاقتصادية، فاضطربت

(1) النجوم الزاهرة: ج11/ص251؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج1/ص350.
(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج1/ص330 ، 337.
(3) حسن المحاضرة : ج2/ص309.
(4) المصدر نفسه : ج2/ص308.
(5) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص8.

الأسواق، وارتفعت أسعار البضائع المطلوبة كمادة مفيدة للموبوءين مثل البطيخ الصيفي [1].

بعد مرور أربع سنوات على تعافي القاهرة من الطاعون الذي ضربها،عاد إليها مرة أخرى في محرم سنة 818هـ/1415م[2]، واخذ بالتزايد شيئاً فشيئاً حتى بلغ ذروته في شهري صفر وربيع الأول، وبلغ عدد الوفيات (80) نسمة يومياً، وانتهى في ربيع الآخر من السنة ذاته[3].

وما إن دخل ربيع سنة 819هـ/1416م على القاهرة حتى تفشى الطاعون فيها مخلفاً إعداداً كبيرة من الوفيات [4] بلغت(100) نسمة يومياً في منتصف صفر، ثم ازدادت إلى(200) نسمة في آخره، ووصل الحال إلى درجة وفاة معظم أفراد العائلة الواحدة، وقدرت المصادر عدد الوفيات في القاهرة وحدها مع بداية شهر ربيع الأول(300) نسمة يومياً، ثم ارتفعت إلى(500) نسمة في منتصفه، وربما وصل العدد إلى أكثر من ذلك لان الإحصائيات كانت تعتمد على من ترد أسمائهم إلى الديوان، ومن جملة من توفي في هذا الطاعون ابنتا الإمام ابن حجر العسقلاني اللتين أورد ذكرهما في سياق الحديث عن طاعون هذه السنة ((وماتت ابنتاي عالية وفاطمة وبعض العيال))،كما أشار إلى أن فرصة نجاة المصابين بطاعون هذه السنة كانت ضئيلة جداً، فكانوا يموتون خلال وقت قصير جداً، وممن توفي في هذا الطاعون بعض أمراء المماليك واعيان القاهرة وعلمائها، منهم قاضي العسكر ومفتي دار العدل تقي الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد بن الجيتي [5]، وإبراهيم بن العز محمد بن أحمد بن أبي الفضل محمد النويري[6]، والإمام أبو أحمد ظهيرة بن حسين بن علي علي بن أحمد المخزومي المكي[7].

لقد تسبب انتشار وباء الطاعون في سنة 819هـ/1416م إلى حدوث أزمة غلاء نتج عنها مجاعة في القاهرة وضواحيها، فسعى السلطان المؤيد(815-824هـ/1412-1421م)

(1) المقريزي، السلوك:ج6/ص348.
(2) حسن المحاضرة : ج2/ص309.
(3) السلوك: ج6/ص376؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/53 ؛ النجوم الزاهرة: 25/14 .
(4) السيوطي، حسن المحاضرة : ج2/ص309.
(5) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص87؛ السخاوي ، الضوء اللامع: ج11/ص50.
(6) السخاوي، الضوء اللامع: ج1/ص127.
(7) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص107.

جاهداً من اجل اتخاذ التدابير اللازمة لإصلاح الوضع الاقتصادي[1]،وهذا ما سيتم التفصيل عنه في أثناء الحديث عن سبل معالجة الطاعون والوقاية منه.

وفي سنة 820هـ/1417م تفشى الطاعون بالإسكندرية ودمياط ووصل إلى القاهرة، إلا أنه كان فيها اخف وطأة من غيرها من المدن مقارنة بالطواعين الأخرى، فبلغت وفياته(40) نسمة يومياً [2]، ولم تقدم المصادر تفصيلات أكثر عن أوضاع القاهرة في أثناء هذا الطاعون.

لم يلبث وباء الطاعون أن عاد إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة 822هـ/1419م[3]، 822هـ/1419م[3]، وتفشى في القاهرة، مما أرعب السلطة والعامة في آن واحد، وبدءوا باتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة هذا الخطر الذي يهددهم جميعاً دون استثناء، فتمت دعوة الناس إلى الصيام والصلاة والدعاء وترك المعاصي، كما صلى السلطان وسبح ودعا بمعية الخليفة وقاضي القضاة، وذبح القرابين لله تعالى عسى أن يرفع الطاعون عنهم، ووزع أكثر من (28000) رغيف من الخبز ثم أخذ الطاعون بالتناقص تدريجياً، فبلغ عدد الأموات في مستهل جمادى الأولى (77) نسمة يومياً حسبما تم إحصائه في الديوان بعد أن كان أضعافاً مضاعفة، كما أورد ابن تغري بردي إحصائية مفصلة بعدد الوفيات في القاهرة خلال خمسة وسبعين يوماً امتدت من منتصف شهر صفر إلى سلخ شهر ربيع الآخر، فبلغ مجموعها (7652) نسمة منهم (1065) رجلاً (669) امرأة و(3969) طفلاً و(544) من العبيد و(1369) من الإماء و(69) من النصارى و(32) من اليهود، فضلاً عمن لم يرد اسمه الدواوين [4].

وصل وباء الطاعون إلى القاهرة في 8 شعبان 823هـ/1420م بعد أن ظهر قبل ذلك في الإسكندرية وبلاد الصعيد، على الرغم من عدم وجود الظروف المناخية المؤدية إلى ظهوره، فمنسوب مياه النيل كانت معتدلة، ودرجة الحرارة كانت غير مرتفعة في صيف هذه السنة، واستمر حتى العام التالي، فارتفع عن القاهرة،إلا انه كان اخف من طاعون السنة السابقة [5].

---

(1) حسن المحاضرة : ج2/ص309.
(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص139.
(3) أشار السيوطي إلى أن الطاعون حدث بمصر، ولم يشر إلى القاهرة. ينظر: حسن المحاضرة: ج2/ص309.
(4) المصدر نفسه: ج14/ص79- 81.
(5) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص199.

انتعشت مدينة القاهرة، ولم يطرق الطاعون لها باباً إلا بعد مرور عشر سنوات، ففي ذي القعدة 833هـ/1429م تفشى بالمدن المصرية [1] كالوجه البحري والإسكندرية، نتيجة لارتفاع درجات الحرارة عن الحد الطبيعي، مما كان سبباً في وفاة أعداد كبيرة، فضلاً عن الخسائر الكبيرة في الثروة الحيوانية في مدن مصر، واستمر حتى فصل الشتاء، حيث وصل إلى القاهرة، ويعد حدوثه في ذروة فصل الشتاء من الأمور النادرة، فبلغت وفيات القاهرة(12) نسمة يومياً، ووصلت إلى ما يقرب من(50) نسمة، وأخذت هذه النسبة بالارتفاع مع نهايات ربيع الآخر، فبلغت (100) نسمة، مما ادخل الذعر في قلوب السكان، فكرروا ما قاموا به في سنة 819هـ/1416م من صيام ودعاء وصلاة وتقديم القرابين وترك المعاصي، وعلى الرغم من ذلك لم يخف الوباء، وأخذت أعداد الوفيات بالزيادة إلى أضعاف ما كانت عليه، فبلغت (300) نسمة يومياً، فضلاً عمن لم يرد اسمه إلى الديوان [2].

ازدادت حدة الطاعون في شهر جمادى الأولى فبلغت وفيات القاهرة في الرابع من هذا الشهر (1200) نسمة، ومات في هذا الطاعون عدد كبير من مماليك السلطان الأشرف برسباي (825-841هـ/1421-1437م) [3]، إذ وصلت إلى (50) مملوك يومياً، وفي أخر شهر جمادى الأولى بلغ عدد من صلي عليه (550) نسمة، وأحصيت الوفيات في جميع مصليات القاهرة، فبلغت (2246) نسمة، كما توفي من السودان (3000) نسمة، ونتيجة لكثرة الوفيات عز وجود حمالي الموتى وغاسليهم ومن يحفر القبور، مما اضطر السكان إلى القيام بالدفن الجماعي في حفرة واحدة [4].

عرف هذا الطاعون بشدة وطئته على سكان القاهرة، وكان من أكثر الطواعين التي وقعت فيها أضرارا بالسكان، لذلك أطلق عليه تسمية (الفناء العظيم)، وهذا ما أكده المقريزي من خلال قوله: ((فقد مات في طاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة في يوم واحد بالقاهرة وظواهرها نحو عشرة آلاف إنسان، واستمر ذلك أياما ما بين ثمانية آلاف

(1) السيوطي، حسن المحاضرة: ج2/ص309.
(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص340؛ ج15/ص156؛ السيوطي، المصدر نفسه: ج2/ص309.
(3) ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ص340.
(4) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص437-438 .

وتسعة آلاف وعشرة آلاف)) [1]، كما خلت بيوتٌ كثيرة من أهلها على الرغم من كثرة عددهم [2].

لقد ساءت الأوضاع الاقتصادية في شهر جمادى الآخرة بسبب هذا الطاعون الذي خلف أزمة اقتصادية حادة زادت من وقعه، فبلغ عدد من صلي عليه بمصلاة باب النصر فقط في يوم واحد أكثر من (800) نسمة [3]، وفي ذات اليوم بلغ عدد من خرج من الأموات من سائر أبواب القاهرة(12300) نسمة، وبلغ عدة من صلي عليه بمصلاة باب النصر من الأموات في العشر الأوسط من جمادى الآخرة (1535) نسمة، ومثلها تقريباً في مصلاة المؤمني[4]، وفي يوم 18 جمادى الآخرة دخل فصل الربيع، وأخذ الطاعون يتناقص غير أنه فشا يومئذ في أعيان الناس وأكابرهم ومن له شهرة بعد أن شكل الأطفال اغلب ضحاياه [5].

ومما يدل على شدة هذا الطاعون تفشيه بين الحيوانات أيضاً، اذ لم يقتصر الوباء على البشر، فوجد في نهر النيل والبرك أعداد كبيرة من الأسماك والتماسيح الموتى طافية، فضلاً عما مات من الحيوانات البرية في بساتين القاهرة من الدجاج الظباء والذئاب وغيرها[6]، فانشغل السلطان كثيراً بأمر هذا الطاعون ومنحه الأولوية على غيره من الأمور، وسعى جاهداً لإيجاد مخرج من هذا المأزق، واخذ يتشبث بأي علاج حتى وان كان خرافياً، إلا أن الطاعون اخذ بالتناقص مع دخول شهر رجب، وعلى الرغم من ذلك اخذ السلطان باستفتاء العلماء عن نازلة الطاعون هل يشرع الاجتماع فيها للدعاء، فاختلفوا في فتواهم، فأمر أن يبتهل كل واحد إلى الله تعالى في سره، وأشاروا عليه بالتوبة ورفع المظالم [7].

وممن توفي في هذا الطاعون الأمير محمد الابن البكر وولي عهد السلطان برسباي في يوم الثلاثاء 26 جمادى الأولى[8]، والأمير يشبك الشقيق الأكبر للسلطان، فضلاً عن عدد كبير من الأعيان كمحتسب القاهرة صارم الدين إبراهيم بن ناصر الدين، وأبو المكارم

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص 81.
(2) المصدر نفسه: ج14/ص 338-339.
(3) المقريزي، السلوك: ج7/208؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ص340 - 342.
(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ص342.
(5) المقريزي، السلوك: ج7/208؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج14/ص343.
(6) المقريزي، المصدر نفسه: ج7/208.
(7) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص438.
(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص233.

إبراهيم بن أحمد الشاذلي، ونقيب الأشراف ومتولي كتابة السر أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني الدمشقي وصدر الدين أحمد بن محمود بن المعروف بابن العجمي الذي تولى ديوان الإنشاء والحسبة مراراً[1]، والقاضي تقي الدين يحيى بن محمد بن يوسف الكرماني البغدادي[2]، وناصر بن محمد ناصر الدين البسطامي [3]، ونظام الدين يحيى بن سيف الدين بن محمد محمد السيرامي[4] وسليمان بن عبد الله بن يوسف، وأبو الخير بن أبي السرور محمد المالكي مع أبيه وأخيه فضلاً عن أبيه وأخيه [5]، وعبد الغني بن عبد الواحد بن إبراهيم المرشدي المكي والسلطان المخلوع محمد بن ططر [6]، والشيخ جلال الدين نصر الله بن عبد الرحمن بن أحمد أحمد المعروف بالروياني [7]، وهاجر خوند بنت منكلى بغا زوج برقوق وأمها خوند فاطمة بنت الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون [8]، فضلاً عن عدد كبير من المماليك السلطانية وأمرائهم كالأمير برد بك السيفي أحد مقدمي الألوف بمصر[9]، ومقدم المماليك الأمير ياقوت الحبشي [10].

ضرب الطاعون مدينة القاهرة وفشا بين الحيوانات ولاسيما الأبقار في شهر شعبان سنة 841هـ/1437م ثم انتقل إلى السكان في أول شهر رمضان من السنة ذاتها، وبلغ عدد الأموات الذين وردت أسمائهم إلى ديوان المواريث (18) نسمة، ثم أخذ عددهم يتزايد في كل يوم، ولاسيما الأطفال والإماء والعبيد [11].

ما أن دخل يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر رمضان حتى ازدادت شدة الطاعون وتزايد معه تخوف السلطان العزيز يوسف بن برسباي (841-842هـ/1437-1438م)، فسأل الفقهاء عن الذنوب التي يرتكبها الناس، وهل يعاقبهم الله بالطاعون، فقالوا

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص 441-443، 453.
(2) ابن العماد، شذرات الذهب:ج7/ص 206-207.
(3) السخاوي، الضوء اللامع: ج10/ص196.
(4) ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص207.
(5) السخاوي، الضوء اللامع: ج3/ص265؛ ج11/ص156.
(6) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص450.
(7) ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص207.
(8) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص452 ؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص207.
(9) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه: ج3/ص451،452.
(10) ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص207.
(11) المقريزي، السلوك: ج7/ص349، 358؛ السيوطي، حسن المحاضرة: ج2/ص309.

نعم فأمر بمنع كل أنواع المعاصي من زنا وشرب الخمر وخروج النساء إلى الأسواق، كما اتخذ السلطان إجراء آخر في 26 رمضان، فأفرج عن جميع المسجونين [1].

لقد أثرت شدة هذا الطاعون على الحياة اليومية في مدينة القاهرة بكافة جوانبها، فأخذت الأوضاع الصحية والمعيشية في المدينة تسير نحو الأسوء يوماً بعد آخر[2]، وممن توفي في هذا الطاعون أحمد بن محمد بن جبريل الأنصاري السعدي القاهري [3]، ومحتسب القاهرة دولات خجا [4]، وازدادت أعداد الموتى فبلغ عدد من صلي عليه بمصلاة باب النصر فقط في اليوم(400) نسمة، وهى واحدة من (11) مصلاة بالقاهرة وظواهرها' إلا انه اخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً مع دخول شهر ذي الحجة من السنة ذاتها [5].

إذا كانت أعداد الوفيات متقاربة في جميع مصليات القاهرة، فان ضرب هذا العدد في عدد المصلاة يكون العدد التقريبي لعدد الأموات في القاهرة في اليوم الواحد أي (X400 11= 4400) ميتاً في اليوم الواحد.

وهناك إشارة واحدة عن تفشي الطاعون في القاهرة في سنة 843هـ/1439م أوردها السخاوي في أثناء الحديث عن وفاة العلامة محمد بن طاهر بن أحمد بن محمد بن محمد غياث الدين المعروف بغياثا الخجندي ((دخل القاهرة غير مرة ومات بها في الطاعون سنة ثلاث وأربعين)) [6]، إلا انه لم يذكر أي تفصيلات عن هذا الطاعون أو وفيات أخرى حدثت فيه.

وفي سنة 848هـ/1444م ظهر الطاعون بمصر، واخذ بالانتشار حتى دخل القاهرة في أول شهر محرم، وكان في تزايد يومي حتى بلغ شدته في صفر، وبلغ عدد ضحاياه ما يزيد على(500) نسمة في اليوم حسب ما أشار ابن تغري بردي، كما أشار في رواية أخرى((كان بالقاهرة الطاعون العظيم، بحيث كان يخرج في اليوم الواحد ما يزيد على الألف))، ومهما بلغ عدد الضحايا سواء (500) أم (1000) نسمة في اليوم، فأنها نسبة كبيرة

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص93-94.
(2) المقريزي، السلوك ج7/ص350؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج15/ص95.
(3) السخاوي، الضوء اللامع: ج2/ص72.
(4) المقريزي، السلوك: ج7/ص358؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص104.
(5) ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج15/ص104-105.
(6) السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (د.م.، بيروت: 1993م):ج2/ص488.

آنذاك إلى درجة انه وصفه بالطاعون العظيم مما يدل على شدته، إلا أن وطأته لم تلبث أن خفت مع دخول شهر ربيع الأول، حيث بدأ يتناقص من القاهرة ويتزايد بضواحيها[1].

وفي أول صفر 852هـ/1448م تفشى الطاعون بمصر، وبلغ عدد ضحاياه أكثر من (1000) نسمة تقريبا، وممن توفي فيه محمد وأحمد ولدي السلطان الظاهر جقمق(842-857هـ/1438-1453م) وشقيقتهما التساعية وشقيقتهما الأخرى خوند فاطمة ابنة السلطان الخماسية[2] وأخت السلطان وزوجته' ومجموعة من الأعيان مثل بختك الناصري أحد أمراء العشرات[3] والأمير العلاء الكرماني والشريف حسن بن على المعزول عن نقابة الأشراف والبرهان إبراهيم بن ظهير ناظر الإسطبل، فضلاً عن جماعة من الأعيان كانت احدهم ابنة الخليفة المستكفي بالله سليمان (845-855هـ/1441-1451م) والأمير الناصري محمد بن طوغان الدوادار وخازندار الكمال ابن البارزي [4]، والأمير جانم الظاهري جقمق، وفي يوم الاثنين الاثنين العاشر من صفر تناقص الطاعون تناقصاً واضحاً [5].

ما أن دخل شهر ربيع الآخر سنة 864 /1459م حتى بدأ الطاعون ينشب أضفاره في بلدة بلبيس وسرياقوس من ضواحي القاهرة، فتخوف السكان من تفشي الطاعون في القاهرة[6] ولاسيما أنهم كانوا يعانون من ارتفاع الأسعار وظلم المماليك الأجلاب وانعدام الأمن، بسبب جرائم السرقة والسلب وقطع الطرق، فضلاً عن مهاجمة العربان للمدينة فيتوقف جلب الغلال[7]، وبدأت ضحايا الطاعون بالازدياد ولاسيما في أرياف القاهرة، فبلغ عدد من ورد اسمه إلى الديوان في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر خمسة وثلاثين(35) نسمة، ومع مستهل جمادى الأولى أخذت أعداد الوفيات بالتزايد، فبلغ من يرد اسمه إلى الديوان(60) نسمة، ثم وصل إلى (120) نسمة ما بين رجل وامرأة وصبي، ومما انفرد به هذا الطاعون عن غيره،أنه كان ينقص في اليوم نقصاً قليلاً ثم يأخذ بالازدياد في اليوم التالي

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص349- 359.
(2) ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور(عالم الكتب، القاهرة : 1990م):ج1/ص50؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص261.
(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص392.
(4) ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص261.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص390 -392.
(6) المصدر نفسه: ج16/ص136- 137، 140.
(7) علي بن داؤد الجوهري الصيرفي، إنباء الهصر بابناء العصر، تحقيق: حسن حبشي (د.م.، القاهرة: 1970م)،ص144-145، 192-193؛ ابن إياس، بدائع الزهور: ج3/ص12-13.

أكثر مما كان عليه، واستمر الحال على هذا المنوال حتى انتهى من القاهرة نهائياً، ففي 17 جمادى الأولى بلغ عدد الضحايا(170)نسمة يومياً ممن ورد اسمه إلى الديوان،فبلغ عدد من صلي عليه بمصلات باب النصر وحدها(100) نسمة، وعندما اشتدت المحنة كلف الأمير زين الدين الإستادار جماعة من الناس بإحصاء من صلي عليه في جميع مصلوات القاهرة وظواهرها،فبلغ عددهم(600) نسمة في اليوم الواحد [1].

توفي في طاعون هذه السنة عدد من الشخصيات المعروفة كناظر الديوان شمس الدين منصور بن الصفي' و القاضي زين الدين عبد الرحيم العيني' وحاجب الحجاب الأمير يونس العلائي، ورأس نوبة الأمير يشبك الأشقر الأشرفي، كما بلغ عدد الأموات في هذا اليوم ممن صلي عليه في مصلى واحد حسبما ورد إلى الديوان (235) نسمة. وأما مجموع من صلي عليه في مصلاوات القاهرة كلها فبلغ نحو (1153) نسمة، ومما زاد الطين بلة تزامن هذا الطاعون مع أزمة اقتصادية أدت إلى ارتفاع مفرط في الأسعار بسبب ظلم المماليك الأجلاب، وازدادت شدة الطاعون في القاهرة وظواهرها مع بداية شهر جمادى الآخرة، وكان معظم الأموات من الأطفال والعبيد والجواري، واختلف الناس في عدد الوفيات، فبالغوا فيها لخشيتهم على أنفسهم،فمنهم من قال بلغ عدد من يموت في اليوم(4000) نسمة، ومنهم من قال (3500)، كما اشتهر هذا الطاعون عن غيره بغرابة أمره، فقلما يسلم الموبوء من الموت إلى درجة أن بعضهم قال فيه((من كل مائة مريض يسلم واحد فأنكر ذلك غيره وقال ولا كل ألف مبالغة))، كما كان لهذا الطاعون أثره على المماليك السلطانية، إذ توفي في شهر جمادى الآخرة عدد كبير منهم بلغ(630) نسمة، إذ بلغت أعداد وفياتهم في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر(75) نسمة من بينهم(35) أميراً. أما من توفي بهذا الطاعون من المماليك الإينالية فقط فبلغ(1400) مملوك[2].

في حين بلغ عدد الضحايا من العامة حسبما أشار ابن تغري بردي(4000)نسمة في اثنتي عشرة مصلاة، إلا انه استدرك مشككاً في هذا العدد، ومعللاً شكوكه من خلال قوله إن عدد من صلي عليه في مصلاة باب النصر وحدها(570) نسمة، وفي مصلاة البياطرة(470) نسمة، وفي الجامع الأزهر(396) نسمة، وبذلك يكون المجموع الكلي (1436) نسمة في

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج16/ص136- 137، 140.
(2) المصدر نفسه: ج16/ص141،143-147.

المصليات الثلاث من مجموع سبع عشرة مصلاة، وبناءً على ذلك كيف تكون إحصائية من مات في هذا اليوم (4000)، فهذه الإحصائية عارية عن الصحة.

أخذ الطاعون يخف شيئاً فشيئاً من القاهرة وظواهرها في العشرة الأخيرة من رجب، وقد رافق ذلك انخفاض الأسعار نتيجة لزيادة عرض السلع والبضائع المحتكرة كالشعير والتبن وغيرها مما خفف من وطأة الوباء' فبلغ عدد من صلي عليه في باب النصر(25) نسمة، وبمصلاة البياطرة(23) نسمة،وبالجامع الأزهر(5) وبمصلاة المؤمني (35) نسمة، بعد أن كان من يرد إليها بالمئات، ومع دخول شعبان خف الطاعون كلياً من القاهرة وجميع الديار المصرية [1].

وفي مستهل رمضان سنة 873هـ/1468م ضربت مصر أزمة اقتصادية، أدت إلى موجة غلاء شديدة، نتج عنها تفشي وباء الطاعون فيها، وكانت القاهرة إحدى مدنها المنكوبة،إذ وصل عدد ضحاياه ما بين (4000- 5000) نسمة في اليوم حسبما أشار الصيرفي، ومعظمهم من المماليك والجواري والعبيد والأطفال، إلا انه اخذ بالتناقص في العشرة الثانية من رمضان وممن توفي فيه ابنة احمد بن السلطان برسباي وأمها وخالتها، والأمير يونس العلائي الناصري فرج [2]، والفقيه محمد بن عبد الرحيم بن علي أبو الخير العقبي القاهري الشافعي[3]، كما توفيت فيه ابنة السلطان الأشرف قايتباي التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها، إلا أن الطاعون خف في شهر شوال حتى تلاشى، فوصل عدد من صلي عليه في مصلاة باب النصر (38) نسمة، وفي مصلاة المؤمني (17) نسمة[4].

لعل أشهر الطواعين التي ضربت مدينة القاهرة في عهد السلطان الأشرف قايتباي(873-901هـ/1468-1496م) الذي حدث في سنة 897هـ/1491م، إذ أودى بحياة أعداد كبيرة من السكان، وصلت إلى(200000) نسمة حسبما قدرتها المصادر والمراجع، فمات فيه ثلث المماليك تقريباً، فالسلطان ذاته فقد بسببه كل من زوجته وابنته، كما انه خلف أزمة اقتصادية حادة، نتج عنها مجاعة كبيرة قتلت الكثير من الناس[5]،وممن توفي فيه الفقيه

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج16/ص145-147
(2) الصيرفي، إنباء الهصر، ص59، 80.
(3) الكتبي، عيون التواريخ: ج1/ص5؛ السخاوي، الضوء اللامع: ج8/ص51؛ ابن إياس، بدائع الزهور:26/3.
(4) الصيرفي، إنباء الهصر، ص 60، 61 .
(5) ابن إياس، بدائع الزهور: ج273/2، 275؛ قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 67.

الحافظ محمد بن محمد بن المدعو بالفرغل، والأمير مغلباي الشريفي الظاهر خشقدمي، وناصر بن مفتاح النويري المكي، وناصر بن يشبك الدوادار [1].

(1) السخاوي، الضوء اللامع: ج9/ص274؛ ج10/ص165، 197.

المبحث الثالث

سبل الوقاية ومعالجة الإصابة بوباء الطاعون

على الرغم من السعي الحثيث من قبل الدولة والعامة في آن واحد، لاتخاذ الإجراءات الكفيلة للحد من انتشار وباء الطاعون والقضاء عليه، إلا أن تلك الإجراءات كانت عقيمة، ولم يبق أمامهم سوى الابتهال إلى الله والدعاء والتوسل إليه لرفع الطاعون عنهم، وغالباً ما كانوا ينتظرون ارتفاعه عنهم تلقائياً لاعتقادهم بعدم وجود علاج له، ولاسيما أنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل الوقائية كما في وقتنا الحالي كالحجر الصحي والعزل، وإبعاد الحيوانات خارج المدن وإغلاق المناطق الموبوءة لمنع انتشاره، لذلك كانت أساليبهم بدائية حسب ما هو سائد مع العصر الذي تقع فيه الكارثة.

لقد كان الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى في مثل هذه المحن شيء طبيعي، فكان هذا النوع من الإجراءات التي تقوم بها السلطة والعامة معاً في أوقات انتشار الطاعون، كما هو الحال سنة 822هـ/1419م، حيث نودي في الناس من قبل محتسب القاهرة أن يصوموا ثلاثة أيام ليخرجوا بعدها مع السلطان المؤيد إلى الصحراء ليدعوا الله في رفع الطاعون عنهم، حاملين الأعلام والمصاحف ومكبرين بأصوات مرتفعة، فضلاً عن خروج العلماء والفقهاء ومشايخ الصوفية، كما يتم تجهيز الأطعمة للفقراء من قبل السلطان، ويخرج مرتدياً ملابس بسيطة من الصوف وراكباً فرساً من دون زينة، وعليه علامات الخشوع والانكسار ومكثراً من التلاوة والتسبيح، وما إن يصل إلى مكان التجمع حتى ينزل عن فرسه مترجلاً، ويبسط يديه داعياً الله سبحانه وتعالى وهو يبكي والجميع يدعون الله ويتضرعون إليه، وبعد أن يكتمل الدعاء يركب السلطان وتسير العامة إلى حيث الأكل، فيأكل السلطان معهم، ثم يذبح السلطان بيده القرابين أمام الناس وتوزع على الفقراء، ومن الممارسات التي يقوم بها السلطان ورجال الدولة أيضاً التظاهر بالعدل ومحاربة الفساد المنتشر في مؤسسات الدولة من جهة والمجتمع من جهة أخرى فيتولى السلطان الكثير من الأمور الإدارية، والنظر بأحوال الرعية بنفسه وماله كالحسبة [1].

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ ص 41 -42، 78 -79.

كما أمر الخطباء بان ينزلوا عن المنبر درجة، عندما يصلوا في الدعاء إلى ذكر اسمه ليكون اسم الله والرسول في مكان أعلى من المكان الذي يذكر فيه اسمه [1]، وكثيراً ما كان يأمر بالتنفيس عن المكروبين عسى الله أن ينفس كربتهم من خلال منع قضاته وحجابه وغيرهم من القيام بحبس المديونين نهائياً [2]، كما اتخذ السلطان برسباي إجراء آخر في أثناء طاعون سنة 833هـ/1429م، فأفرج عن جميع المسجونين من أرباب الجرائم وأغلق السجون بالقاهرة ومصر، فكان لهذا القرار من لدن السلطان آثاره السلبية بدلاً من الانتفاع منه، إذ أدى إلى انتشار جرائم السرقة والفساد، كما كان الإكثار من الصدقات وعمل الإحسان في أوقات الطاعون التي ينجم عنها مجاعات من الأمور التي يقوم بها السلطان وأرباب الدولة، فذبح السلطان المؤيد بنفسه في طاعون سنة 822هـ/1419م (150) كبشاً سميناً قرابين لله تعالى، فضلاً عن(10) بقرات سمان وجاموستين وجملين ووزعت على العامة، كما أمر بتوزيع (28000) رغيف من الخبز [3].

وعلى ما يبدو أن الدولة لم تتوقف عند ذلك بل كانت تقوم باتخاذ إجراءات اقتصادية عديدة كتوفير المواد الغذائية وتسعيرها ومحاربة الاحتكار ورفع الضرائب والمكوس، كما حدث في طاعون سنة819هـ/1416م، ولاسيما بعدما اخذ الغلاء يتزايد في مدينة القاهرة وضواحيها فأرسل السلطان المؤيد أميره الطواشي مرجان الهندي الخازندار إلى الوجه القبلي ومعه الكثير من الأموال لشراء القمح وجلبه إلى القاهرة لمساعدة الناس في التغلب على الأزمة، كما رفع الضرائب والمكوس، ووضع تسعيرة للبضائع ومنع احتكار التجارة [4]، وأمر القضاة والمحتسبين والأمراء بمراقبة سير التسعيرة ومعاقبة المخالفين [5]، وفي كثير من الأحيان تكون النتيجة عكسية، حيث تختفي البضائع من الأسواق، فتضطر الدولة لإلغاء التسعيرة [6].

(1) حسن المحاضرة : ج2/ص309.
(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص435.
(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص 79؛ج15/ص94.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: 14/41 -42؛ ابن إياس، بدائع الزهور: ج4/ص77؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص85-86.
(5) قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 70.
(6) المقريزي، إغاثة الأمة، ص 33؛ السلوك: ج1/ ص706.

أما الإجراءات التي اتخذتها الدولة بحق العامة في أوقات تفشي وباء الطاعون فكان عديدة، منها دعوتهم للتوبة والدعاء ورفع المظالم، وإزالة المنكر كالزنا والخمر لاعتقادهم أنها سبباً في حدوث الأزمات كنوع من العقاب الإلهي[1]، ففي أثناء تفشي طاعون سنة 841هـ/1437م هاجمت الدولة جميع أوكار الفساد والخمر والحشيش[2]، كما اخذ القضاة والأمراء بحث الناس على الإقلاع عن المعاصي، والإكثار من الطاعات، فضلاً عن منع النساء من الخروج إلى المقابر وتوعدوا المخالفات منهن بالموت، كما منعن من الخروج إلى الطرقات مطلقا ظناً منهم أن بمنعهن يرتفع الطاعون، وأخذ والى القاهرة والحجاب في مراقبة الطرقات، وعاقبوا المخالفات منهن [3].

وفي كثير من الأحيان كان السلطان ورجال الدولة يتشبثون بأية معالجة تطرح كحل للخروج من المأزق حتى وإن كان خرافياً، كما حدث عندما أشار كاتب السر على السلطان العزيز بجمع أربعين شريفاً اسم كل منهم محمد ويتم توزيع الأموال عليهم، ويقوموا بتلاوة ما تيسر من القرآن بعد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر، وعندما تقترب صلاة العصر يقوموا بالدعاء والتكبير، والناس حولهم، فصعد الأربعون إلى السطح، فأذنوا العصر جميعاً معناً، ثم انفضوا بعد ذلك، إلا أن ذلك لم يزد الطاعون إلا كثرة وشدة [4]، وكان هذا ما نصحهم به به بعض الأعاجم الذين قالوا إن هذا العمل أُقيم ببلاد الشرق في أثناء طاعون حدث عندهم، فارتفع عنهم عقيب ذلك [5].

وعلى ما يبدو أن موافقة السلطان على هذا الرأي، على الرغم من انه كان من بعض تقاليد العجم واعتقاداتهم كان بسبب إدراكه لجسامة الطاعون الذي شكل حملاً ثقيلاً على كاهله.

ومن الإجراءات الوقائية الصحية التي كان يقوم بها العامة عند انتشار وباء الطاعون لتجنب الإصابة به، عدم الدخول إلى الأماكن الموبوءة وحمامات الأسواق والابتعاد عن التجمعات، وهذا ما كان ينصح به العلماء والحكماء آنذاك[6].

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3 / ص439؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص93.
(2) قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص 70.
(3) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ ص 439 ؛ ابن تغري بردي، لنجوم الزاهرة: ج15/ص93.
(4) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص438.
(5) المقريزي، السلوك: ج7/208؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص343.
(6) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج1/ص440، 444.

المبحث الرابع

اثر الطاعون على مدينة القاهرة في العصر المملوكي

من الطبيعي أن يكون لانتشار الأمراض ولاسيما الوبائية منها كالطاعون آثار سلبية على مجريات الحياة في المجتمع، ولا تقتصر هذه الآثار على جانب معين دون غيره، بل عصفت بمختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية في البلاد الموبوءة،الا أنها تباينت من جانب إلى أخر من حيث الشدة، ومن وباء إلى آخر.

أولا :اثر الطاعون على الجانب الاقتصادي والاجتماعي

إن حدوث الطاعون يؤدي إلى شل الحياة الاقتصادية في البلاد الموبوءة، ويتسبب في كثير من الأحيان بخلق أزمات غلاء تودي بحياة الكثير من السكان، نتيجة لقلة المواد الغذائية أو رداءتها إن توفرت في الأسواق، يقابلها ارتفاع كبير في الأسعار، لذلك يضطر السكان إلى أكل لحوم الميتة وجيف الحيوانات كالقطط والكلاب وغيرها، وأشارت بعض المصادر إلى أن ((الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم والقطة بثلاثة دراهم))[1]، ويتعداه في بعض الأحيان إلى أكل لحوم البشر، كما حدث في سنة696هـ/1269م و697هـ/1297م[2]، فيؤدي إلى إضعاف المناعة عندهم ولا يقوون على مقاومة وباء الطاعون وغيره من الأوبئة التي تنتشر بالتزامن مع الفقر والبؤس، فتكثر نسبة الوفيات، وتنتشر الجثث في الطرقات لعدم وجود من يقوم بدفنها[3].

كما كانت الأسواق تضطرب في مثل هذا الظروف، كما حدث في السنوات 694هـ/1267م [4] و784هـ/1382م[5]، ولاسيما بعد أن قل وجود الكثير من المواد الغذائية فيها لكثرة الطلب عليها كمادة مفيدة للموبوءين كالبطيخ الصيفي، وهذا ما حدث في سنة

(1) ابن إياس، بدائع الزهور: ج1/ص133.
(2) النويري، نهاية الأرب: ج29/ص82؛ المقريزي، السلوك: ج1/ص808؛ إغاثة الأمة، ص37-38؛ السيوطي، حسن المحاضرة: ج2/ص291-292.
(3) المقريزي، إغاثة الأمة، ص 76-77؛ أ. اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى (دار قتيبة، دمشق: 1985م)، ص 396.
(4) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي: ج2/ص233؛ السيوطي، حسن المحاضرة: ج2/ص301.
(5) السيوطي، المصدر نفسه: ج2/ص306.

816هـ/1413م، إذ بيعت خمس بطيخات بألفي درهم أي ما يعادل ثمانية مثاقيل من الذهب ثم وصل ثمن النصف بطيخة إلى خمسمائة درهم أي ما يعادل مثقالي ذهب، كما عز وجود الماء فارتفعت أسعار السقاية، فبلغ سعر الراوية الواحدة من الماء خمسة عشر درهماً[1].

وتكررت المجاعة التي رافقت تفشي الطاعون مرة أخرى في سنة819هـ/1416م، فكانت الآثار السلبية على الناحية الاقتصادية والاجتماعية أكثر وضوحاً، حيث ارتفعت أسعار القماش الذي يكفن به الأموات، كما ارتفعت أسعار الأدوية ارتفاعاً ملحوظاً، وزادت أرباح العطارين والأطباء فبلغت إرباح احد العطارين من الأدوية في أحد الأوبئة ((في يوم واحد اثنان وثلاثين ألف درهم، كذلك بلغ متوسط المكسب اليومي للطبيب حوالي مائة درهم)) [2]، فضلاً عن ارتفاع سعر كل ما يحتاج إليه المرضى من السكر والكمثرى والبطخ على الرغم من قلة من يعالج بالأدوية من الموبوءين، ولاسيما أن أكثرهم من فقراء العامة فتكون وفاتهم سريعة [3] لعدم قدرتهم على شراء الأدوية والأغذية بسبب انخفاض مستواهم المعيشي والصحي، فيصبحوا طعماً لهذا الوباء [4]، وفي مقابل ارتفاع أسعار بعض البضائع يؤدي تفشي الطاعون إلى كساد بضائع أخرى بسبب الإجراءات التي اتخذتها السلطة كالبضائع النسائية من ثياب وعطور وغيرها بسبب منعهن من الخروج، فضلاً عما نزل بهن من موت أولادهن وأقاربهن، كما أن احتكار البضائع والسلع من لدن كبار رجال الدولة كان يزيد من الطين بلة ويسهم في تفاقم المجاعة، كما حدث في طاعون سنة 864هـ/1459م، حيث أدت الأوضاع الاقتصادية السيئة بسبب الأوبئة إلى انعدام الأمن إلى انتشار الكثير من الظواهر الاجتماعية السيئة، كظاهرة الفساد وحوادث السرقة والسلب في الأزقة والشوارع، فلم يعد الشخص قادراً على الخروج من داره بعد أذان العشاء لأداء صلاة الجماعة ولو كان جار المسجد، لانشغال رجال الدولة بممارسات فاسدة [5]، كما أن انتقال الطاعون إلى الحيوانات يؤدي إلى الإضرار بالثروة الحيوانية وإنتاج المحاصيل الزراعية، كما حدث في طاعون سنة 833هـ/1429م و841هـ/1437م الذين ماتت فيهما أعداد

(1) المقريزي، السلوك : ج6/ص348؛ ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص8.
(2) المقريزي، إغاثة الأمة، ص 35-36.
(3) المقريزي، السلوك: ج7/208؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص340 - 342.
(4) ابن أيبك، كنز الدرر: ج8/ص383.
(5) المقريزي، السلوك: ج7/ص350؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص95، 136، 145.

كبيرة من الأبقار التي يستخدمها الفلاحين في أعمال الزراعة [1]، فضلاً عن موت أعداد كبيرة من الفلاحين خلال تفشي الوباء، وهجرة القسم الآخر خشية الإصابة به، مما جعل الأراضي تبقى بوراً من دون زراعة، وبالتالي يقل الإنتاج الزراعي ((ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن ازدراعها لغلو البذر وقلة المزارعين)) [2]، مما يؤثر سلباً على الجانب الاجتماعي والمعيشي للفرد بسبب عدم وجود دخل كافي نتيجة لتوقف أعمال الزراعة، كذالك الحال بالنسبة للتجارة، فإنها كانت تعاني من كساد كبير في مثل هذه الظروف بسبب قلة البضائع الواردة والمصدرة بسبب خشية التجار من الإصابة بالطاعون، إذ ما قدموا، وهذا احد أسباب تدني المستوى المعيشي للفرد [3].

كما لم يقتصر اثر الوباء على الطبقة الفقيرة، وإنما تعداه إلى الأغنياء وجال الدولة على الرغم من تمتعهم بمستوى اقتصادي واجتماعي عالي، إذ توفي الكثير منهم في الطواعين التي ضربت القاهرة كأبناء السلاطين وبناتهم وزوجاتهم وأمرائهم [4].

ثانياً: اثر الطاعون على الجانب السياسي والعلمي

لقد كان وباء الطاعون ذا اثر سلبي كبير على الحياة السياسية والعلمية في القاهرة في العصر المملوكي، فعلى صعيد الحياة السياسية كانت الفوضى السياسية والفتن تنتشر، بسبب الفساد الإداري، فيضطر السلطان إلى استبدال الموظفين والأمراء غير الكفوئين بآخرين أو انتقال سلطات ذلك الموظف إلى السلطان ذاته، وهذا ما حدث عندما قام السلطان بتقييد سلطات محتسب القاهرة، الذي عزل عن من لدن السلطان المؤيد في أثناء طاعون سنة 822هـ/1419م، وانتقلت صلاحياته إلى السلطان شخصياً إلى درجة أنه لم يدع له أي سلطة تذكر بسبب سوء تدبيره [5]، فضلاً عن قيام السلطان بعزل جميع نواب القضاة الأربعة البالغ عددهم مائة وستة وثمانين قاضياً في القاهرة وحدها، وجعل لكل قاض من

(1) المقريزي، المصدر نفسه: ج7/ص349، 358؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه: ج15/ص92؛ السيوطي، حسن المحاضرة: ج2/ص309 .
(2) المقريزي، إغاثة الأمة، ص41.
(3) عطا، الأزمات الاقتصادية، ص 58؛ قاسم، عصر سلاطين المماليك "التاريخ السياسي والاجتماعي(عين للدراسات والبحوث والإنسانية، القاهرة: 1998م)، ص 253-254.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص233؛ حوادث الدهور: ج1/ص50؛ ابن العماد، شذرات الذهب: ج7/ص261.
(5) قاسم، النيل والمجتمع المصري، ص50.

قضاة المذاهب الأربعة ثلاثة نواب فقط [1]، كما أن وفاة الكثير من الأمراء والموظفين الكفوئين بسبب الإصابة بالطاعون جعل مناصبهم شاغرة، لعدم وجود من هو قادر على تحمل أعبائها والأمثلة على ذلك كثيرة كقاضي العسكر الشيخ شمس الدين الذي توفي في طاعون 749هـ/1348م[2]، وكاتب السر صلاح الدين بن نصر الله الذي توفي في طاعون سنة 841هـ/1437م، والأمير تمرباي التمربغاوى رأس نوبة النوب في سنة 582هـ/1448م[3] وغيرهم كثير قد تم ذكرهم ضمن نطاق هذا الفصل.

أما الحياة العلمية فكانت تتأثر كثيراً نتيجة لتوقف الدروس والحلقات بسبب عدم إمكانية التجمع، خشيةً من الإصابة بالطاعون من ناحية، وتوقف الرحلة في طلب العلم من والى البلد الموبوء من ناحية أخرى، فضلاً عن وفاة الكثير من العلماء والفقهاء من ذوي الاختصاصات المختلفة بسبب تفشي الطاعون كالإمام محمود بن أبي القاسم بن محمد الأصبهاني الذي توفي في طاعون 749هـ /1348م، وكان إماماً بارعاً في الفنون وله الكثير من المصنفات، وشرع في تصنيف التفسير، إلا أنه لم يكمله بسبب وفاته [4]، والفقيه شرف الدين محمد بن عبد الواحد بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد السنقاري[5]، وعبد اللطيف بن محمد بن محمد المعروف بابن الشحنة الذين توفي في طاعون سنة 833هـ/1429م[6]، وغيرهم ممن ورد ذكرهم آنفاً.

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج3/ص90؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج14/ص41 -42.
(2) أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان (عالم الكتب، بيروت: 1407هـ):ج9/ص97-98.
(3) المقريزي، السلوك: ج7/ص357؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج15/ص103، 392.
(4) السيوطي، طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر (مكتبة وهبة، القاهرة: 1396هـ):ج1/ص282.
(5) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر: ج1/ص575.
(6) السخاوي، الضوء اللامع: ج4/ص338.